أم مارية الأثرية
د. آلاء ممدوح محمود
ليدبروا آياته

الربع السادس عشر

المقطع الرابع من المحور الثاني: قصص الإحياء والإماته الحسية والمعنوية والعبرة منها

(260-243)

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246)}

التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

علاقة هذه الاية بما قبلها

لما ذكر الله -تبارك وتعالى- خبر الألوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، فقال لهم الله: موتوا، ثم أحياهم، وبيَّن أن الفرار من الموت والحذر لا يُنجي من القدر، أمر بعد ذلك بالإنفاق في سبيله، فالقتال في سبيل الله لا يُقرب الأجل، كما أن الإنفاق في سبيل الله لا يورث الفقر، فالله يقبض ويبسط، ثم ذكر بعدها مثال ونموذج عملي يوضح ذلك عن حال طائفة من بني إسرائيل، طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكًا من أجل أن يُقاتلوا في سبيل الله.

تبدأ الآيات بصيغة الإستفهام المنفي {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ } يقص تعالى على نبيه قصة الملأ من بني إسرائيل فيقول له؛ ألم تعلم أيها النبي عن خبر هؤلاء الملأ وهم الأشراف والرؤساء، من بني إسرائيل من ذرية يعقوب وذلك بعد زمن موسى، والرؤية هنا المقصود بها العلمية، لأن النبي ﷺ لم يرهم بعينه، وخص الملأ بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام ومعلوم أن بني إسرائيل كانت تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فقالوا له {

ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا } أي: عيّن لنا ملكا { نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ليجمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، فكأن هذا النبي عرف من حالهم أنهم قد لا يتحققون بذلك، ولا يثبتون عليه، ولا يؤدون مقتضاه، فكان الأمر كما توقع فقال لهم نبيهم { قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا } فخاطبهم بالاستفهام التقريري، فكان يتوقع منهم التراجع، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فأجابوه بأنهم عازمون على القتال، وقالوا مستنكرين ومتعجبين من ذلك مبينين علة حرصهم على القتال، واستماتتهم في طلبه: { قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا } أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذرارينا، وفي التاريخ أن العمالقة في ذلك الوقت قد استولوا على بيت المقدس وطردوهم منه، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقوَ توكلهم على ربهم قال تعالى{ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا } فلما فُرض عليهم القتال، واُختير لهم طالوت ملكًا، حصل منهم التراجع والمُعارضات، وضعُفوا عن النهوض بأعباء هذا المطلوب، فجبنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخور والجبن { إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ } فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، فهؤلاء هم الذين ثبتوا في النهاية، وانتصروا وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلهذا قال: { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } أي أن الله عليم مَن الناكثين من هؤلاء المتراجعين، وهو عليم بغيرهم من أنواع الظالمين.

هداية .... وتدبر

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى	مثل هذا الخبر هو من جُملة الغيوب الماضية، والنبي ﷺ لا يعلم الغيب، فالله هو الذي يُطلعه على ما شاء من غيبه، وهذا من الغيب النسبي، يعني: الذي يطلع عليه بعض الخلق، ويخفى على غيرهم، والعرب لم يكن لهم عهد بالكتب والرسالات السابقة، والله قد أعلم

	نبيه ﷺ عن مثل هذا. كما قالت عائشة رضي الله عنها: "من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴾ [النمل: 65]" رواه مسلم. وقد أمره ربه تبارك وتعالى فقال: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الأنعام: 50]. ولما رميت عائشةُ رضي الله عنها بالإفك لم يعلم عليه الصلاة والسلام أهي بريئة أم لا، وعظم عليه الأمر حتى أخبره الله تعالى ببراءتها. وذبح إبراهيمُ عليه السلام عجله للملائكة ولا علم له بأنهم ملائكة حتى أخبروه وقالوا: ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: 70]، ولما جاءوا لوطًا عليه السلام لم يعلم أيضًا أنهم ملائكة؛ ولذا ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: 77] ولم يعلم خبرهم إلا لما أخبروه فقالوا: ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ [هود: 81]. ويعقوبُ عليه السلام ابيضت عيناه من الحزن على يوسف، وهو في مصر لا يدري خبره حتى أظهر الله خبر يوسف عليه السلام. وسليمان عليه السلام مع أن الله تعالى سخر له الشياطين والريح، ما كان يدري عن أهل مأرب حتى جاءه الهدهد وقال له: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: 22]. فهؤلاء الرسل عليهم السلام أفاضل البشر، ما كانوا يعلمون الغيب، إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه، وكشف لهم خبره، من أنباء الماضي، وعلوم الحاضر والمستقبل. والملائكةُ عليهم السلام مع قربهم من الله تعالى وقيامهم بوظائفهم التي كلفوا بها؛ فإنهم لا

	يعلمون الغيب أيضًا؛ ولما أخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه جاعل في الأرض خليفة ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 30]، ولما قال لهم سبحانه:﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 31 - 32]، فبان بذلك أن أعلم المخلوقات، وأقربها إلى الله تعالى وهم الرسل والملائكة عليهم السلام لا يعلمون الغيب؛ لكنَّ الله تعالى يطلعهم على شيء منه كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: 179]، وقال تعالى: ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ [الجنّ: 26 - 27]. وما كشفه الله تعالى لرسله من الغيب من قصة بداية الخلق، وعمارة الأرض، وأخبار الأمم الماضية، وما جرى لهم، أو ما كان منه في المستقبل من أنباء آخر الزمان، وعلامات الساعة، وأخبار البعث، والقيامة والمصير، فكل ذلك ما هو إلا جزء يسير من الغيب الذي أطلع الله عليه بعض خلقه، وإلا فإنه سبحانه وتعالى: ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 29]، وقد ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: 98]، وأخبر سبحانه أن خلقه ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: 255]، وهو ما علمهم إياه. ولذا فإنه لما تقرَّر في الشريعة أنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى فإنَّ كل طريقة يراد بها التوصلُ إلى شيء من علم الغيب غير طريقة الوحي الذي اختص الله تعالى به رسله فهي ضلال وإفكٌ وكذبٌ، ولا توصل إلى علم حقيقي؛ بل هي مجردُ ظنونٍ وأوهامٍ وأكاذيب لا تغني من الحق شيئًا. ولأجل ذلك حرم الله السحر والكهانة والعرافة، وما جرى مَجراها مِما فيه ادِّعاءُ علم الغيب بطرق شيطانية، وحِيَل كُفريَّة؛ لما فيها من

	منازعة الرب جلَّ جلاله في بعض خصائصه وكل ما يحتاج إليه البشر، وما يُصلح أحوالهم من الغيب كشفه الله تعالى لهم، وعلمهم إيَّاه؛ وهو ما أخبرت به الرسل من تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والأمر والتدبير، ولزوم إفراده بالعبادة دون ما سواه، والطريق الموصلة إلى رضوانه، وأنباء المكذبين وما جرى لهم، وأخبار المؤمنين وجزائهم، والإخبار عن البعث والنشور والحساب والجنة والنار. فكل ذلك مما يحتاج المكلفون إلى العلم به؛ حتى يقودهم إلى الإيمان بالله تعالى وإخلاص العبادة له وحده؛ علمهم الله إياه. كذلك كشف الله لهم من العلوم ما يحتاجون إليه في عمارة الأرض، وإصلاح دنياهم، وحَجَب عنهم ما لا يحتاجون إليه الإيمان بالغَيْبِ هو مفتاح الإيمان بالله تعالى وبما أخبرت به الرسل عليهم السلام ومن أنكر الغيبَ فليس لديه قابليةٌ لأن يُصَدِّق بما أخبرت به الرسل، وما أنزل من الكتب؛ لأن أساس الإيمان بذلك هو الإيمان بالغيب. وكلما كان الإيمان بالغيب أقوى؛ كان الإيمان بالله تعالى وبما جاء من عنده أقوى وأمكنَ في قلْبِ العَبْدِ. وكُلَّما ضعُف الإيمانُ بِالغيب؛ ضعف الإيمان بالله تعالى وهكذا. بل إن من أنكر الغيب فهو خارج من الإيمان كله، وليس في قلبه إيمان ألبتة، وكان حاله كحال الدّهرية الملاحدة الذين قالوا: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: 24]. ومن تكلف البحث في الغيبيات ففيه ضعفُ إيمان بها، ونوع إنكار لها؛ لأن قلبه لو اطمأن بالإيمان بالغيب لما راح يبحث عن هذا الغيب. والنفسُ البشرية بحكم جهلها وعجزها، تنساق خلف دعوات البحث عن الغيب واكتشافه؛ ولكنها عاجزة عن ذلك.

	ومنذ أزمنة طويلة وإلى يومنا هذا كان كثيرٌ من البشر يبحثون في سر موت الإنسان ورُوحه، وما وجد الماديون منهم لذلك تفسيرًا، لكنهم لو آمنوا بالغيب لعلموا أنَّ الرُّوح من أمر الله تعالى وأنَّ البشر مهما بلغت أبحاثهم وعلومُهم فلن يصِلوا إلى علمها؛ لضعفهم، وقلة علمهم ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 85]. إن المؤمن الحقَّ هو من يؤمن بالغيب، ولا يتكلَّف البحث فيه؛ لعلمه أنه من أسرار الله تعالى وأنه لن يدركه ما لم يطلعْه الله على شيء منه، ويجعلُ همّه ومهمته في العمل على تحقيق ما يرضي الله تعالى من الإيمان به، وإقامة دينه، والدعوة إليه. ولو نظرنا إلى طريقة العلماء الراسخين في العلم لما وجدناهم إلا على هذا المنهج السديد.
	{الم تر} اسلوب تعجب وفعلهم هذا قبيح يستحق التعجب والاعجب أن هذا التصرف حصل من أشرافهم وكبرائهم، وهذا لا شك أنه أسوء وأقبح، فالعيب والذم والتقصير حينما يصدر عن الكبراء والأشراف، فهو أعظم مما يصدر عن الأراذل، ومن لا شأن له، وكان اللائق أن يكونوا قدوة لهم في التقدم والمُضي بهذا السبيل، لا أن يُطالبوا بذلك، ثم بعد ذلك يحصل منهم مثل هذا التراجع، ولا سيما أنهم في حال من البصر والعلم؛ لاسيما وأن نبيهم موسى هو كبير أنبياء بني إسرائيل، وكتابهم الذي هو التوراة هو من أعظم الكتب المُنزلة، ومن أوسعها وأشملها؛ فهُم على بينة من الأمر، ولم يكن ذلك عن جهالة، أو عدم وضوح رؤية، وإنما كان ذلك بعد تمام وكمال شريعة بني إسرائيل، ومع ذلك وقع منهم مثل هذا الإخلال، فهذا أيضًا أشد وأعظم. كما قيل العيب في الجاهل المغمور مغمور .. وعيب ذي الشرف المذكور مذكورُ

	كفوفةِ الظفر تخفي من حقارتها... ومثلها في سواد العين مشهورُ وقد جرت عادة الناس على تضخيم وتهويل وتكبير أخطاء الكبراء والأشراف وأهل العلم، ونحو ذلك، فهم ينظرون إليهم بنظر آخر، لكن حينما يرون نفس الخطأ من آحاد الناس قد لا يلتفتون إلى ذلك، ولا يقفون عنده، مع أنهم قد يغرقون في أوحال من المخالفات والانحرافات، ولكن كما قيل: يرى القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه، والله المستعان.
	خاطبهم بانهم ابناء اسرائيل اي يعقوب عليه السلام تذكيرًا لهم بأصلهم الطيب الذي لم يقدروه حق قدره حتى يتعظوا ويرجعوا. كما يقال للمخطيء أنت من أهل الصلاح، وأبوك وأهلك من الأتقياء حتى يبتعد عن المعصية.
إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	أن المرء ينبغي ألا يدخل ولا يلج في أمر، ولا يطلب شيئًا، إلا وقد تهيأ له، وعرف قدرته عليه، وأنه جاد في مطلبه، وأنه قادر على النهوض بذلك، وتحمل الأعباء والتبعات أما أن يكون ممن يتساقط في أول عقبة، أو يصطنع العقبات لأجل أن يتراجع، فهذا أمر لا يليق. فهذه تربية للأمة ألا تُطالب بالحرب والشدة والقتال والابتلاء ونحو ذلك، لكن إذا ابتلوا عليهم أن يصبروا، ويَصدُقوا؛ والله -تبارك وتعالى- يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ }[سورة الصف:2، 3] وذلك أنهم طلبوا أن يعرفوا أحب الأعمال إلى الله -تبارك وتعالى، فلما ذُكر لهم القتال تراجعوا وضعفوا وتثاقلوا، فمثل هذا لا يليق. يُذكر في تاريخ الشريف في مكة إبان حكمه لها، ذُكر أن بقرة للشريف تجوب السوق، وكانت تأكل مما شاءت من الخضروات والفواكه والبقول وغيرها، وتُفسد على الناس سوقهم، فكثُر التذمر بين أهل

	السوق، وتطاولت عليهم الأيام، فبدأ هذا الصوت يرتفع، وبدأت النجوى بينهم، وبدأوا يتحدثون، وأن الشريف لا يعلم بذلك، ولو علم لم يرضَ به، فقوي عزمهم على أن يذهبوا إليه، وأن يُكلموه في شأن هذه البقرة، وأن يكفها عن أهل السوق، فجعلوا أجرأهم مقدَمهم -قدموه- وأخذ عليهم العهد والميثاق أن لا يتراجعوا فأكدوا له أنهم ماضون في هذا السبيل، فاجتمع أهل السوق، وجعل هذا يمشي متوجهًا إلى الشريف، وهؤلاء يمشون خلفه، وهو لا يلتفت، فاستأذن عليه، فأذن له، فدخل، وهؤلاء كان كل واحد يُحدث نفسه فيقول: هذا الفعل لا فائدة فيه، ثم يرجع الواحد بعد الواحد، بعد أن كانوا يُطالبون به، فصار هؤلاء يتراجعون، ويتتابعون على هذا التراجع، حتى لم يبق معه أحد، وهو لا يشعر؛ لأنه لم يلتفت، فدخل فلما وقف بين يديه، قال له: ما حاجتك؟ فقال: هؤلاء أهل السوق فلم يجد أحدًا، فعرف أن هؤلاء تكسرت إراداتهم قبل الوصول إليه، وأنهم تراجعوا، فلما شعر أنهم قد خذلوه، وأنهم نكثوا ما عاهدوه عليه، قال: هؤلاء أهل السوق يقولون: إن هذه البقرة -بقرة الشريف- التي في السوق بحاجة إلى ثور، يُسليها، فهي وحدها تتجول، أراد أن يفعل ذلك نكاية بهم، فتعجب الشريف، وأن هذا المطلب غير معقول، فسأله عن ذلك، فأخبره الخبر.
	الراجح الرجوع في المسائل الكبار إلى أولي الشأن، وأهل الحل والعقد وليس الغوغاء، وعامة الناس. الناس إنما يرجعون لأهل الحل والعقد في عضل المسائل، فهؤلاء رجعوا إلى نبيهم، وهذا يدل أيضًا على أن مرتبة النبوة فوق مرتبة الملك، فهم طلبوا من نبي لهم أن يُعين لهم ملكًا يأتمرون بأمره، ويُقاتلون عدوهم معه. يقول السعدي رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 43]: "وعموم هذه

	الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله تعالى المنزل؛ فإن الله جل وعلا أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم، وتزكية لهم؛ حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة؛ فدل على أن الله سبحانه ائتمنهم على وحيه وتنزيله" ولو تُرك الأمر لعامة الناس لرأيت الفوضى بأسوأ أحوالها وصورها لأن الناس لا تتوافق آراءهم على شيء واحد من أمورهم ومصالحهم، فهؤلاء حينما طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكًا يُقاتلون معه في سبيل الله كان اللائق أنهم يقبلون بهذا الاختيار، ويُسلمون له، لكن لم يحصل هذا الاتفاق، لذا لو تركوا الأمر الى ولي الأمر والشأن لما فاتت المصلحة.
	حاجة الناس إلى السلطة، وأنه لا بد لهم من اجتماع سلطان يضبط أمرهم، ويجمع شتاتهم، ويحفظ بيضتهم، وتتحقق مصالحهم العامة والخاصة، ويكون ذلك سبيلاً لقوتهم، واجتماع كلمتهم، ووحدة صفهم، فيهابهم عدوهم، ولا يطمع فيهم طامع، أما إذا بقوا مُتشرذمين ومُتفرقين، وليس لهم سلطان، وليس لهم جامع يجمعهم، فإن ذلك يُغري عدوهم بهم، وتبقى مصالحهم مضيعة، وتبقى حالهم الغابة يأكل القوي فيها الضعيف، ويكون المنطق السائد هو منطق القوة.
	اذا أراد الإنسان شيئًا، فالجدير به أن يذكر الباعث على تحقيق هذا المطلوب والمقصود الشريف. وهي هنا القتال في سبيل الله، فهذا أدعى إلى تحقيق مأمولهم ومطلوبهم، فالعبد إذا سأل ربه الذرية الطيبة الصالحة، قال: يا رب من أجل أن يوحدوك ويعبدوك، ونحو ذلك، وإذا سأل مالاً أو نحو ذلك قال: أتقوى به على طاعتك، وأنفقه في سبيلك، وابتغاء مرضاتك؛ وإذا سأل صحة، أو عافية، قال: أتقوى بها على طاعتك وعبادتك وذكرك وشُكرك، ولا يكون مطلوبه هذه الأمور من أجل أن يستمتع، ونحو ذلك.
قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ	عسى للترجي، ودخل عليها الاستفهام، والمعنى أنه

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا	كان يظن فيهم عدم الثبات. والمقصود من ذلك هو التحذير مما وقعوا فيه، فحينما ذكر الله هذه القصة ليس المقصود بها التسلية، وإنما ليُحذرنا، كي لا يُطالب الإنسان بشيء ثم بعد ذلك يتراجع عنه، وعليه أن يثبت ويصبر.
وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا	الإنسان قد يظن أنه يتمكن من الصبر، ولكنه إذا حل الأمر، وحقت الحقائق، انكشفت الحال عن صبر ضعيف، سرعان ما يتلاشى؛ ولهذا بعض الناس قد يقول: لو أُصبتُ بالمرض الذي أُصيب به فلان لكنت صابرًا محتبسًا، ولو أصابه أدنى من ذلك لانهار وانكسر، وربما يقول: لو أُبتليت بما أُبتلي به فلان لم أجزع، ثم بعد ذلك يُبتلى بما هو دون ذلك، فيحصل له من الجزع ما الله به عليم؛ ولهذا يقول الله -تبارك وتعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران:200]. وقد يظن الإنسان أنه صابر، ثم بعد ذلك تنكشف الحال أنه ليس كذلك؛ ولهذا لا يدعو الإنسان بالابتلاء، ولا يتمنى لقاء العدو وقد قال النبي: "أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا"، فلا يتمنى الإنسان المكروه، وإنما يسأل ربه العافية؛ لأنه قد ينقطع صبره، فلا يصبر، فدائمًا يسأل ربه العافية، وإذا أُبتلي صبر.
فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلا مِنْهُمْ	أن هذا الفعل قبيح، وأنه يستحق أن يُتعجب منه، الناس قد يطلبون شيئًا، ثم بعد ذلك يتراجعون، وهذا يقع في الأمم، ويقع أيضًا في الأفراد، سواء كان ذلك في القتال في سبيل الله -تبارك وتعالى، أو في غيره. وقد عاتب الله أصحاب النبي ﷺ حيث كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله، ويتمنون لو أنهم عرفوا ذلك، فلما أُخبروا أنه الجهاد تثاقلوا قل تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ } [سورة

	الصف:2-4] فالآيات نزلت في هذا. وكذلك قوله:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [سورة النساء:77] هذا قبل فرض القتال في هذه الأمة، فكانوا يُطالبون ويُلحون بذلك، ثم قال تعالى {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ }كانت النتيجة هي التثاقل أيضًا، قالوا{رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ} وطلبوا التأخير والإمهال، بعدما رأوا تبعات هذا القتال من نقص في الأموال، وقتل الاخوان والأحباب، ويرون أنه من البلاء الذي نزل بهم، ويتمنوا لو أنه لم يقع، وكانوا قبل ذلك يُطالبون به، قائلين: لماذا يُترك هؤلاء الأعداء يعيثون في الأرض فسادًا؟ ثم بعد ذلك لما يتحقق هذا المراد، ويفرحون به، ويطربون لأول وهلة، فإذا رأوا تبعات ذلك استثقلوه. وهذا نجده شاخصًا في زماننا هذا، ماثلاً أمام الجميع؛ فقد يُطالب الناس بأشياء من مجالس العلم والدروس العلمية، ونحو ذلك، فإذا وجدت تجد هذا الذي يُلح ويُطالب ويُكرر ويُعيد هو أول من يتأخر عنها ويتراجع فهذا لا يليق أن يُطالب الإنسان بشيء ثم بعد ذلك يكون أول المُتراجعين عنه.
	الأمة إذا قهرها عدوها وظلمها، فإن ذلك مظنة لفساد الأخلاق فيها هذا الفعل الذي هو طلب القتال، ثم التلكؤ عنه والتراجع يقع للأمم المُستضعفة الذليلة، التي فسدت أخلاقها، فيحصل الالتواء، ويحصل في أخلاق الناس من النفاق والتملق والتلون الشيء الكثير، ويكثر منهم النكث والنقض والاحتيال بأنواع الحيل، وهذا تجده في بلاد المسلمين التي بقي فيها الاستعمار مدة طويلة، تجد التلون الكثير، والنفاق الكثير، ونكث العهود، قلّ من يفي بعهد أو وعد أو ذمة، لأن عدوهم أثر فيهم.
	التولي والتراجع واضطراب النيات، وفتور العزائم يقع للأمم المُنعمة كما يقول ابن عطية -رحمه الله، فالأمم المُنعمة

	يميلون إلى الدعة واللذات والراحة، وربما استحوذ عدوهم على ما في أيديهم، وقهرهم، وأذلهم، أو تربص بهم الدوائر، ويُعد العدة، وهم في حال من الغفلة الكبيرة المُطبقة عليهم، والله المستعان.

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) }

"التفسير الموضوعي، وترابط الآيات"

لما ذكروا له ما يدل على ثباتهم، قال لهم بعد ذلك بتفصيل بعد الإجمال، مجيبًا لطلبهم فقال: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا} أي: أرسل لكم طالوت ملكًا، بناء على طلبكم أن نبعث لكم ملكًا تقاتلون معه في سبيل الله، فتحقق ذلك كما طلبتم، ودخلت (قد) على الفعل الماضي، فذلك يدل على التحقيق، ومن شأن الأخبار التي يحصل فيها التردد، أو الشك عند السامع: أن تؤكد بالمؤكدات، فجاء التأكيد هنا بـ(إن) الذي هو بمنزلة إعادة الجملة مرتين.

فكان هذا التعيين لطالوت من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقال هؤلاء الملأ معترضين على هذا الاختيار: {قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ} أي: كيف يكون ملكا وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه، ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها.

فلهذا قال لهم نبيهم: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ} أي إن الله اختاره عليكم، وهو أعلم بأمور عباده، فذلك من قبيل الاصطفاء من الله -تبارك وتعالى، الاصطفاء المبني على الحكمة، والأمر لما يكون محل معارضة من قِبل السامعين، فإنه يحتاج إلى تأكيد، ويحتاج إلى ما يحصل به الإقناع، فذكر اصطفاء الله -تبارك وتعالى- له، فلزمكم الانقياد لذلك.

ثم ذكر المؤهلات التي بها اصطفاه الله واختاره، فقال{ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ } أي: فضله عليكم بقوة الرأي والجسم اللذين بهما تتم أمور

الملك، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع، فتكون قوة على غير حكمة، ولو كان عالما بالأمور وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي الذي لا ينفذه شيئا.

ثم بين أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء فقال: {وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ} له الملك كله، يؤتيه من يشاء.

{والله واسع} أي واسع الفضل والعطاء كثير الكرم، لا يخص برحمته وبره العام أحدا عن أحد، ولا شريفا عن وضيع، ولكنه مع ذلك {عليم} أي عليم بأحوال الخلق وما يصلحهم، وعليم بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، ولا يخفى عليه شيء فما عليكم إلا التسليم، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبيينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد.

هداية .... وتدبر

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا	**الوحي يقابل بالتسليم والإذعان والقبول** لم يُضف ذلك إلى نفسه، فلم يقل: قد اخترت لكم طالوت، مع أنهم قالوا: ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله، وإنما قال: إن الله، فأسند ذلك إلى ربه -تبارك وتعالى، فدلّ على أنه وحي من الله، ولم يكن باجتهاد من هذا النبي، وهذا ينبغي أن يُقابل بالتسليم؛ لأن هذا ليس باجتهاد، وإنما اختاره صاحب الملك، وهو أيضًا العليم بخلقه، ومن يصلح لهذا المطلوب، فهو يخلق ثم يختار مما خلق، فيختار للنبوة، ويختار للملك، ويختار لطاعته وعبادته، ويختار لولايته، والقُرب منه، إلى غير ذلك من أنواع الاختيار.
أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ	**الحق حينما يُعارض يزيده ذلك وضوحًا** معارضاتهم قادت إلى مزيد من البيان والإيضاح، فذكر لهم نبيهم ما لطالوت من المزايا والخصائص،

يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ	التي بها فضله عليهم؛ وذكر لهم ما يتصل باختيار الله وفضله وعطاءه وجوده واصطفائه.
	الأسئلة المتكلفة عواقبها لايحمدها سائلها صار الجهاد بالنسبة لهم من الأمور المُستثقلة؛ ولهذا قال الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ }[سورة المائدة:101] وهذا في وقت التنزيل، فيحرم السؤال عن أشياء لم تُحرم فتُحرم بسببه، أو نحو ذلك، وبنو إسرائيل لما أمروا بذبح بقرة: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً} [سورة البقرة:67] شددوا، فسألوا عن سنها، ثم سألوا عن لونها، ثم سألوا عن عملها، هل هي عاملة مُذللة أو لا؟ فجاء الجواب بما ضيق عليهم، فذكر أوصاف لهذه البقرة، حتى تعبوا في البحث عنها، فبعض الأسئلة ربما تورث عواقب لا يحمدها السائل، أو توقعه في حرج، ونحو ذلك، فليس معنى ذلك: ألا يتفقه في الدين، لكن المقصود الأسئلة المُتكلفة، أو بعض الأسئلة في وقت التنزيل.
إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ	**العلم والرأي مع القوة البدنية والعملية، هذا الذي يحصل به كمال الولايات** القوة العلمية، والقوة البدنية العملية، خصائص من شأنها أن يُسلم الناس قيادهم لمن اتصف بها: كما قال الله -تبارك وتعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ} [سورة ص:45] فجمع لهم بين القوتين أُوْلِي الأَيْدِي يعني: القوة في طاعة الله وعبادته وجهاد أعدائه، وتبليغ الدعوة، فهم أصحاب جلد وقوة في النهوض بأمر الله -تبارك وتعالى، وهم أيضًا أصحاب بصائر، فعندهم من العلم ما يجتمع مع هذه القوة، فتحصل القوتان، القوة العلمية، والقوة العملية، وهذا هو الكمال، فقد يوجد عند الإنسان القوة في البدن، ونحو ذلك، لكن ليس عنده بقية الصفات، والله -تبارك وتعالى- ذم المنافقين، فقال: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ} [سورة المنافقون:4] فهم

	يتميزون بأجسام وقامات، ولكن للأسف أشباح بلا أرواح، كأنهم خُشب، والخُشب والألواح يُضرب بها المثل في البلادة، والغباء، ونحو ذلك، وأيضًا مُسندة، يعني: لا يقوم عليها سقف، أو نحو ذلك، وإنما هي عالة وعِبء على غيرها، فما فائدة هذه الأجسام؟ لكن إذا وجد هذا وهذا، فهو الكمال، فالعلم والرأي مع القوة البدنية والعملية، فهذا الذي يحصل به كمال الولايات، وإذا فُقد شيء من ذلك، كان نقصًا في كماله؛ ولهذا قالت تلك المرأة التي سقى لها ولأختها موسى {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ} [سورة القصص:26] القوي في البدن، والقوي في الأمانة، شمل الجانب المادي، والجانب المعنوي، فهو الأمين الذي يحفظ المصالح، ويحوطها ويرعاها، وما أشبه ذلك، فهو بهذه المثابة: أكمل علمًا وقوة، وهذا يدل على ما يُطلب في الولايات من العلم، وهو في كل شيء بحسب الولاية والقوة، فيكون ذلك كاملاً، فلا يُنظر إلى الصلاح فقط والتقوى؛ ففي الطب ينظر إلى الأعلم في هذا المجال، والهندسة ينظر إلى الأعلم فيها، وهكذا.
	قدم البسطة في العلم على البسطة في الجسم، {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} [سورة البقرة: 247] باعتبار أن هذه الكمالات والفضائل متفاوتة، فالبسطة في العلم وحُسن التدبير أهم من البسطة في الجسم؛ ولذلك انظر إلى البهائم من ذوات القامات المُمتدة لما لم تكن متصفة بالعلم والعقل، كان ذلك غير مُغنٍ عنها، فالبسطة في العلم هي الأساس، فإذا حصل معها البسطة في الجسم فهذا كمال، وهذا كله من فضل الله - تبارك وتعالى- على عباده.
	يُؤخذ من زيادة البسطة في العلم والجسم: أن البسطة في الجسم لها أثر، فهو يقدر بذلك على تدبير أمور مملكته، وقيادة الجيوش، للقتال في سبيل الله الذي أرادوه وطلبوه، وهو أعظم هيبة في نفوس الأعداء، فالهيئة والصورة هذا أمر يُراعى ويُلاحظ ولا يُغفل

	عنه. ولايُعارضه ذلك أن أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- ما كانوا يُعنون بشيء من المظاهر، عمر كان ينام في المسجد وتحت شجرة، لأن الجيل الذي كان فيه يقيس الأمور بمقاييس شرعية، فهم لا يغترون بالمظاهر، ولا يعبأون بها، وعلى طريقة العرب الأولين، كانوا ينظرون إلى الحقائق، وليس إلى الأشكال والصور، وهذا هو الصحيح. خذ بنصل السيف واترك غمده .. واعتبر فضل الفتى دون الحلل ليست العبرة بالغِمد، وليست بالثياب، وإنما ما تحت الثياب، لكن عامة الخلق ليسوا كذلك، فقد تغيرت أحوال الناس؛ ولهذا فإن من المهابة، وإنفاذ أمر السلطان، وعدم جراءة الناس عليه: أن يكون مظهره يورث الهيبة في نفوس الناس، في هيئته هو، وكذلك ما يحتف به، بحيث إذا جاء هؤلاء إلى هذا السلطان أو إلى القاضي، أو نحو ذلك، في موضعه ومحله ومكتبه، يكون له هيبة، لينفذ حكمه، لكن لو كان القاضي يجلس تحت شجرة مثلاً، أو عند عتبة بابه، أو نحو ذلك لاجترأ الناس عليه، أو كان في مكتب متواضع جدًا، فقد يستطيلون عليه، ولا يعبأون به، ويردون عليه، ونحو ذلك، كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله: والناس أكثرهم فأهل مظاهر .. تبدو لهم ليسوا بأهل معانِ فهم القشور وبالقشور قوامهم .. واللُب حظ خُلاصة الإنسانِ فكثير من الخلق لا ينظر إلا إلى ساعتك التي تلبسها، وثيابك، ومركبتك، والمكتب الذي أنت فيه، ونحو ذلك؛ فلو دخل الناس شركة هندسة معمارية ويريدون شراء بيوت، أو مكاتب ثم وجدوا هذه الشركة مبهرجه بالزخارف، والبنايات لأقبلوا عليها ووثقوا فيها، بخلاف لو كانت المكاتب متواضعة.

	ولذلك عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- لما ولي الخلافة أراد أن ينزع ما في جامع دمشق الذي بناه الأمويون، من الفُسيفساء والأحجار الكريمة، كونها من المُخالفات والبدع، وإضاعة المال، وفيه نهي عن زخرفة المساجد، فقيل لعمر بن عبد العزيز -رحمه الله: إن المسلمين بذلوا فيها أموال طائلة، وقِدم بها تجارهم من بلاد الروم، فنزعها إضاعة وإتلاف للمال، فأمر عمر سترها بالسُتور على أساس يُغطي هذه الزخارف والأحجار الكريمة، فبينما هم كذلك جاء عظيم من أهل الديانة النصرانية، فدخل الجامع، فلما نظر بهره ذلك، فقال: إن هذا ينبغي أن يكون لأمة عظيمة، فلما أخبروا عمر بما سمعوا منه، قال: ألا أرى مسجد دمشق غيظًا على الكفار، فترك ما كان هم به من أمره. ولهذا يذكر أهل العلم فيما يتعلق بالمركب، واللباس، ونحو ذلك: أنها إن كان لإغاظة أعداء الله، فهذا أمر لا إشكال فيه، أما إن كان للفخر والخُيلاء والإسراف والتبذير، فهذا لا يجوز، فقد تكون بعض الأفعال والتصرفات ونحو ذلك من قبيل السياسة الشرعية، والله تعالى أعلم.
وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ	فالملك لله وحده، وما بأيدي الناس من الملك إنما هو ملك لله {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة آل عمران:26] وهكذا الأملاك التي بأيدي الناس فما يملكه الإنسان فالواقع أنه مُلك لله فينبغي أن يستعمله في مرضاة الله، وأن يقوم عليه بما يُرضي ربه - تبارك وتعالى.
	الملك باختيار الله الملك فهو الذي يهب الملك لمن يشاء. قد يأتي الملك لمن لا يترقبه، ولايتوقعه، بينما آخر قد يتهالك، ويبذل دينه، وكل ما استطاع من أجل أن يُحصل شيئًا من الولايات، ومع ذلك لم يحصل له

	مُراده؛ ويؤتى بآخر لم يسع لذلك، ولم يطلبه، ويوضع في هذا المكان؛ فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، فالله سبحانه أعلم بمن يستحق ذلك ممن لايستحقه، فله الملك والتدبير والتصرف، وهو لب الإيمان بربوبيته سبحانه وقضائه وقدره.
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ	**لأن الله (واسع) فلن تضيق (العبودية) إلا على جاهل.** واسع في عطائه وجوده وملكه وغِناه، وعليم يعلم أحوال الخلق، فمن لا يصل إليه شيء من ذلك: إما من ولاية، أو مال، أو نحو ذلك، لا يظن أنه نُسي، أو أن الخزائن قلت، لا، فالله واسع، ويعلم أحوال الخلق بالتفصيل، ولا يفوته أحد، ولا ينسى أحدًا، لكن لعلم وحكمة أعطى هذا، ولم يُعط هذا، فينبغي على العبد أن يرضى بما أعطاه الله. قوله تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى/27] وقد أسند ابن الجوزي في (العلل المتناهية) من حديث عمر مرفوعا:{ أتاني جبريلُ فقالَ يا مُحمَّدُ ربُّكَ يقرأُ عليكَ السَّلامَ ويقولُ إنَّ مِن عبادي من لا يصلُحُ إيمانُهُ إلا بالغِنى ولو أفقرتُهُ لَكَفرَ وإنَّ من عبادي من لا يصلُحُ إيمانُهُ إلا بالقلَّةِ ولو أغنيتُهُ لَكَفرَ وإنَّ من عبادي من لا يصلحُ إيمانُهُ إلا بالسُّقمِ ولو أصحَحتُهُ لَكَفرَ وإنَّ مِن عبادي من لا يصِحُّ إيمانُهُ إلا بالصِّحَّةِ ولو أسقمتُهُ لكَفرَ}. وضعفه كذلك ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) والألباني في (السلسلة الضعيفة). وهذا وإن كان ضعيفًا إلا أن معناه صحيح، وهذا المعنى ذكره غير واحد من أهل العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى): قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع من الغنى، والغنى أنفع لآخرين، كما تكون الصحة لبعضهم.

	فائدة اقتران واسع عليم قال ابن سعدي : (واسع عليم) أي واسع الصفات كثير الهبات عليم بمن يستحق المضاعفة من العالمين وعليم بمن هو أهل فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات. مع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه بالأمور الماضية والمستقبلة. واسع بفضله، فينعم به على من أحب، ويريد به من يشاء (عليم) بمن هو أهل لملكه الذي يؤتيه، وفضله الذي يعطيه، فيعطيه ذلك لعلمه به

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248) }

"التفسير الموضوعي، وترابط الآيات"

ولأنهم قوم اعتمدوا على الجدال وعدم التسليم الفوري ذكر لهم نبيهم آية حسية يشاهدونها تدل على كرامة طالوت: {أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ}، والتابوت هو الصندوق، وقيل: الذي كانوا يضعون فيه التوراة، وقد ذكر بعضهم أن أعداءهم انتزعوه منهم؛
ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، السكينة من السكون بمعنى الطمأنينة التي يحصل بها تثبيت القلوب، فتسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم، وفيه أيضًا {وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} أي بقية أشياء تركها آل موسى وآل هارون، قيل: العصى، وقيل: أشياء أخرى، الله أعلم بها، ثم أتى ببرهان آخر على اختيار طالوت ملكًا عليكم بأمر الله قال: {تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} فهذا تعظيم له، فأعلمهم باختيار الله وذكر لهم برهان ذلك، لذا لابد أن يؤمنوا بهذه الآيات

إن كانوا على ثقة من وعد الله لهم.

هداية .... وتدبر

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ	**أسلوب التربية بتكرار الآيات أنجح في الاعتبار وأدعى لإيقاظ القلب** الانتفاع بالآيات يكون مع كمال الإيمان، فكلما زاد الإيمان زاد الإنتفاع. والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، كما قال الله عن القرآن: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }[سورة البقرة:2]، فهو هدى، لكن الذين ينتفعون بهذا الهدى هم المتقون، فبقدر ما يتحقق من التقوى يحصل الانتفاع بهذا الهدى

{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249)}

"التفسير الموضوعي وترابط الآيات"

لما تملّك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، قال

تعالى{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ} يعني: خرج بالجنود، سار بهم لقتال عدوهم، وكانوا عددا كثيرا وجمًا غفيرا، امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك فقال: { قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} أخبرهم بأن الله سيمتحنهم ويبتليهم على صبرهم وثباتهم بنَهر فمن شرب منه فهذا لا يكون تابعًا له، و فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته، ومن لم يشرب منه فإنه معه، إلا من شرب غُرفة واحدة فلا لوم عليه، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، { فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} أي فلما بلغوا ذلك النهر تهافت أكثرهم على الشرب منه، وانقطع صبرهم، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلا على الله، وتضرعا واستكانة وتبرؤا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقلتهم وكثرة عدوهم، ثم لم يبق معه إلا القليل الذين اكتفوا بغرفة أو لم يطعموا من هذا النهر وصبروا على العطش، حينئذ سار طالوت بمن معه ثم واجهوا عدوهم، { فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} أي فلما جاوزوا النهر، ورأوا قلتهم وكثرة أعدائهم، وعَددهم وعُددهم، جبُنوا عن قتالهم، فأجابهم آخرون وهم قلة قليلة من أهل الإيمان الذي ثبتوا فقالوا: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ } أي: يستيقنون ذلك، والظن يُقال: لليقين، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مُثَبِّتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرهم، وآمرين لهم بالصبر {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ } ، أي: بإرادته ومشيئته يؤيدهم ويوفقهم ويثبتهم وينصرهم على عدوهم، فالأمر لله تعالى، والعزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره، { وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم.

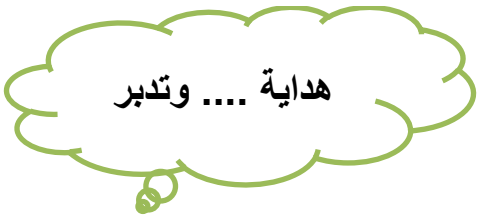

قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ	جاء هذا الابتلاء في هذه القضية وهي الشرب من هذا النهر امتحانًا للنفوس؛ لأن الذي لا يصمد ويثبت أمام متطلبات النفس فإنه سرعان ما ينهزم وينكسر أمام العدو، ومثل هؤلاء لا يؤسف عليهم ولا على تخلفهم؛ لأنهم لو جاءوا لم يحصل بمجيئهم كبير دفع ولا نفع، كما قال الله عن المنافقين: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [سورة التوبة:47]، يشيعون الأراجيف والفتن والإفساد، {يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ}، فهؤلاء كما قال الله {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [سورة التوبة:46]، فهنا الذي لا ينتصر على شهوته لا يثبت أمام عدوه ولا ينتصر في ميدان المعركة. لذا دائمًا نقول لابد أن تبدأ بتغيير نفسك، ثم تغير من حولك، فالتغيير يكون من القاعدة لا من الرأس، هذا هو الأصل، لكن الكثير تحمله سهولة أمر غيره، عن مشقة تغيير نفسه، ويريد أن يجني الثمرة سريعًا، والدعوة طريقها طويل، وهذا سير الأنبياء والرسل.
	من حق القائد منع واستبعاد المخذلين والمرجفين، ومن لا يصلح للحرب ممن يكون مجيئه سببًا للخذلان والهزيمة، وعلى الجميع أن يمتثل ولايعترض. وهذا في كل مكان بحسبه، فمن حق العالم مثلًا أن يخصص دروس للمتفوقين، وطلاب العلم الأقوياء، يمنع منها الضعفاء، والعوام، وعلى الجميع الإمتثال، وعدم التأفف، لأن العامي إذا درس العلم الذي يصعب عليه، سيثبط غيره، ويثير الفتن حول العالم، وأنه يأتي بمعضلات، وقد يعيب العلم، وينقم عليه، وهو لايشعر أن المشكلة في عقله وفهمه.
	هذا الابتلاء لهم قال بعض أهل العلم: ذلك باعتبار أنه كان مشهورًا في بني إسرائيل أنهم يخالفون الأنبياء والملوك مع ظهور الآيات، فأراد الله -تبارك وتعالى- إظهار علامة قبل لقاء العدو يتميز بها من يصبر في الحرب ومن لا يصبر؛ لأن الرجوع قبل المواجهة أسهل من الرجوع عند المواجهة، ولذلك كان الفرار يوم

	الزحف من الموبقات، السبع الموبقات؛ لأنه يفت في الأعضاد ويتسبب في هزيمة الجيش.
	من فوائد الإبتلاء بالنهر: من أجل أن يتدربوا على الشدائد والصبر والتحمل واحتمال العطش قبل مواجهة عدوهم فتكون نفوسهم قد تدربت وتهيأت وتروضت على الصبر. فالفرج بعد الكرب، واليسر بعد العسر، ومن المحن تأتي المنح. كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا وحياله جحر ، فقال : " لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر ". حتى يدخل عليه فيخرجه عن الحسن قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوما مسرورا فرحا وهو يضحك ، وهو يقول : " لن يغلب عسر يسرين ، لن يغلب عسر يسرين ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا". ومعنى هذا : أن العسر معرف في الحالين ، فهو مفرد، فالعسر الأول عين الثاني؛ واليسر منكر فتعدد. ومما يروى عن الشافعي رضي الله عنه ، أنه قال : صبرا جميلا ما أقرب الفرجا ... مَن راقب الله في الأمور نجا من صدق الله لم ينله أذى ... ومن رجاه يكون حيث رجا
	غرفة مع يقين تروي المؤمن لأن روحه ليست عطشى، فلعل هذه الشربة هي التي ترويهم، وتدفع عنهم العطش.
فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ	في الوقت الذي احتاج طالوت قومه قالوا له :(لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) فبعض كلمات (الأقربين) أشد فتكا من سلاح (الأعداء)، فيكون منهم التخذيل.
قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً	اليقين بمعية الله -تبارك وتعالى- ولقاءه هذا هو الزاد الضروري الذي يحتاجه أهل الإيمان من أجل أن ينتصروا على عدوهم، ومن أجل ألا تقع الهزيمة، ومن أجل ألا يحصل اليأس والخذلان.

بِإِذْنِ اللَّهِ	فالإيمان يبعث على الصبر، فهذا اليقين هو الذي حملهم على الصبر والثبات. فكلما زاد اليقين بمعية الله، ولقاءه، كلما قوي الصبر عند الشدائد، سواء مرض أو موت قريب، وضيق عيش، ومن أعظم ما يقوي ذلك: دراسة أسماء الله الحسنى كالرقيب، والعليم والخبير
	ضرورة التصبير والتثبيت وبث التفاؤل في النفوس، فهؤلاء قالوا لهم: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}، هؤلاء كانوا يُدركون ضعفهم المادي، وقلتهم، ومع ذلك كانت ظنونهم بالله حسنة، هكذا ينبغي أن يكون المؤمن أن يُحسن الظن بالله فالله لا يخذل أولياءه. والجيوش في العصر الحديث هناك جهات تختص بالجوانب النفسية، وتقوية معنويات الجنود، لكي يثبتوا أمام العدو فلايفروا.
	ليست العبرة (بالكثرة) إنما العبرة (بالصفوة) النصر ليس بمجرد الكثرة، بل هو من عند الله، والله يقول: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا [سورة التوبة:25]، بل لما ذكر مدد الملائكة قال في سورة الأنفال: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة الأنفال:10]، وفي سورة آل عمران {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [سورة آل عمران:126]، فالنصر من الله وحده، وله متطلباته التي لابد من تحققها، ومنها أن الفئة المؤمنة قليلة هي التي تصعد والصعود شاق فيتساقط كثيرون دونه دون الوصول إلى النهاية والقمة، فتبقى هذه الفئة القليلة وهم أهم الاختيار والاصطفاء، ثم يكون الفتح على أيديهم، والنصر والغلبة، وذلك أن هؤلاء يتصلون بمصدر القوة الحقيقية وهو الله -تبارك وتعالى.
	من سنن الله التمايز والتصفية، حتى في المجاهدين من حكمة الله في هذا الخلق أن يميز الخبيث من الطيب،

	والصادق من الكاذب، والصابر من غيره، فالله لا يترك العباد على دعواهم أو أمانيهم، وإنما يبتليهم ويُمحصهم فتتميز الصفوف. فيقال للمبتلى بأي نوع ابتلاء أن ابتلاءك للتمحيص، والتمييز، فاصبر واحتسب، ويبتلى المرء على قدر دينه.
	العزائم الفاترة والنفوس الضعيفة والمقاصد الفاسدة تمنع من بلوغ المطالب العالية، وتقعد بأصحابها عن نيل المرام وبلوغ النصر، فيتراجعون ولو كانوا كثيرا الفئة الكثيرة غلبتها الفئة القليلة؛ لسوء أحوالهم، وأعمالهم، ومقاصدهم، وعقائدهم، فهؤلاء لا عبرة بكثرتهم، ومن هنا كان ينبغي تفقد الحال، ومراجعة النفس، وإصلاح المقاصد والنيات والأعمال، كما قال أبو الدرداء "إنما تقاتلون بأعمالكم"، ولما هُزم المسلمون في يوم أُحد وتساءلوا: "أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ" [سورة آل عمران:165]، فكما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بأن هذه المعاصي هي جنود وكتائب يُجيشها العاصي على نفسه فتغزوه.
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ	تدري لم الله مع الصابرين ؟ لأن قلوبهم منكسرة له تنتظر فرجه لسانهم في شدة البلاء، يلهج يا الله يقينهم بأن الفرج من عنده ؛ فكيف لايكون الله معهم.
	التساقط الذي حصل لبني إسرائيل منذ البداية، أكثروا على نبيهم في أن يبعث لهم ملكًا، فلما أُخبروا أنه طالوت اعترضوا {أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ} [سورة البقرة:247] فبدأوا يطبقون عليه المعايير التي يقيسون بها الناس، ونسوا عما هو أهم من ذلك، فهذا أول التراجع والاضطراب والوهن، ثم بعد ذلك ابتلوا بالنهر، فشرب منه أكثرهم، ولم يبق إلا القلة {فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} [سورة البقرة:249] فكانت النتيجة أن الأكثرين شربوا، ثم بعد ذلك لما حصلت المواجهة قال كثير من هؤلاء: {لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ

	وَجُنُودِهِ} فمن الذي بقي في النهاية؟ هم الفئة القلة القليلة من هذا العدد الكبير، بقي مجموعة، ورد أنهم على عدد أهل بدر، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، وهؤلاء هم الذين حصل على أيديهم النصر.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات